

الف ليلة وليلة

تاريخ حياتها

—(١)—

« المحاضرة الثانية »

ليس من اليسير على الباحث الكشف عن حقيقة كتاب كالف ليلة وليلة أصله مفقود ، ومؤلفه مجهول ، وزمان وضعه مبهم ، ومكان حوادثه مشتبه ، لانا اذا فرغنا الى التاريخ نأله قال : إن ما يتصل بالأقاصيص والأساطير كان خارجاً بطبيعته عن اختصاص الاديب ومنهاج المؤرخ ، واذا رجعنا الى نص الكتاب ندرسه لتبين من لغته وأسلوبه وأسماء أبطاله ومواطن رجاله وعقائد أهله — نصيب كل جنس وجيل في تكوينه وجدناه من هذه الجهة ضعيف الحجة خادع الرأي قليل الفناء ، لان كثيراً من النساخين والقصاصين في البلاد المختلفة قد اعتوروه فنقلوه على وفق لهجاتهم ، وعبثوا به على مقتضى شهواتهم ، حتى لا تجد نسختين منه نثقتان لافي الترتيب ولا في النص . ففي حكاية البنات مع الحمال والصعاليك الثلاثة مثلاً يقول الصعلوك الثاني : انه قرأ القرآن بالروايات السبع وحفظ الشاطبية ، والشاطبية في علم القراءات كالألفية في علم النحو ، وفي بعض النسخ لا يذكر الشاطبية ويكتفي بذكر الروايات السبع . فلو ان ذكر الشاطبية كان عاماً في جميع النسخ لحكمنا بان هذه الحكاية كتبت بعد سنة ٥٩٠ وهي السنة التي توفي فيها الشاطبي . وفي حكاية مزين بغداد يذكر المزين الفيلسوف سنة ٧٦٣ في نسخة وسنة ٦٥٣ في نسخة أخرى ، فعلى اي الرقمن نعتد في تاريخ هذه الحكاية ؟ إذن لم يبق للباحث غير الاعتماد على النقد المبني على تاريخ الحضارات المقارن وعلى ما بقي في الكتاب من صور الاساليب ورسوم التعاليد التي لم يشوهها الناسخ ولم يعف عليها الزمن .

كان أول من ذكر الف ليلة من المؤرخين علي بن الحسين المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ في كتابه مروج الذهب فقد قال حين عرض لأخبار إرم ذات العماد « ان هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمها من تقرب من الملوك برواياتها وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة اليها والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية (وفي رواية أخرى الفلموية بدل الهندية) مثل كتاب هزار أفسانه ، وتفسير ذلك بالفارسية خرافة ويقال لها (أفسانه) . والناس يسمون هذا الكتاب الف ليلة وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها شهرزاد ودينيا زاد » ثم جاء بعده محمد بن اسحق المعروف بابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ فقال في الفهرست: « اول من صنف الخرافات وجعل لها كتباً وأودعها الخزائن الفرس الاول ، ثم أغرق في ذلك ملوك الاشفاينة وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ونقلته العرب الى اللغة العربية وتناولوه الفصحاء والبلغاء فهذبوه وتمقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه ، فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب هزار أفسانه ومعناه الف خرافة .

وكان السبب في ذلك أن ملكاً من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة فتلها من الغد فتزوج بجارية من أولاد الملوك لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد ، فلما حصلت معه ابتدأت تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها الف ليلة رُزقت في اثنتائها منه ولما أظهرته وأوقفت الملك على حيلتها عليه فاستعقلها ومال اليها واستبقاها ، وكان للملك تهرمانه يقال لها دينيا زاد فكانت موافقة لها على ذلك . وقد قيل ان هذا الكتاب ألف لحميا ابنة بهمن » .

ثم قال ابن النديم في موضع آخر : « والصحيح ان شاء الله ان اول من سمر بالليل الاسكندر وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه لا يريد بذلك اللذة وانما كان يريد الحفظ والحرس ، واستعمل لذلك بعده الملوك هزار افسانه ويحتوي على الف ليلة وعلى دون المائتي سمر لان السمر ربما حدث به في عدة ليال . وقد رأيت به بتامه دفعات ، وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث » .

فالرجلان كما ترون متنقان على ان الكتاب منقول عن هزار افسانه الفارسي وانه موضوع في خبر الملك والحاريتين شهرزاد ودينيا زاد وان اسمه في عصرهما كان الف ليلة لالف

ليلة وليلة « ولاعبرة بمجيبى اسم الكتاب كاملاً في الطبعة الحديثة المصرية لمروج الذهب فان ذلك من زيادة المصحح » . ويتعلقان في نسب البنت والجارية فيقول المسعودي ان شهرزاد بنت الوزير ودينازاد جاريتها وهو الصحيح ، ويقول ابن النديم ان شهرزاد من أولاد الملوك وان دينازاد قهرمانه الملك ، ويزيد ان الكتاب يحتوي على الف ليلة وعلى دون المائتي ستمر وانه ألف لحميا أو هميا أو حماني أو حمانه أو حمانه أو خماني علي اختلاف الروايات وهي بنت الملك بهمن بن اسفنديار .

هاتان هما الوثيقتان الخطيرتان في تاريخ هذا الكتاب ولا يوجد غيرهما فيما نشر علينا من كتب مؤرخينا القدماء اللهم الا إشارة الى وثيقة ثالثة مفقودة نقل عنها المقرئ في الخطط والمقري في نفع الطيب وعزواها الى مؤرخ مصري اسمه القرطي الف كتاباً في تاريخ مصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي ذكر فيه الف ليلة وليلة وقايس بين قصصه وبين ما يتداوله الناس في عصره من الحكايات المشهورة . وفي هذا دليل على ان الكتاب على أي صورة من الصور كان معروفاً في مصر على عهد الفاطميين ، وان اسمه كان اذ ذاك الف ليلة وليلة ، وان عنصراً من القمص العربي قد دخل في هيكله . ثم تجاهله بعدئذ ادباء ومؤرخونا فلم يحققوا مصدره ، ولم يستجلبوا نموه وتطوره ، حتى جاء رأس المستشرقين البارون سلتستر دسافي ، فبدأ البحث العلمي في أصله بتقابلين نشرهما في جريدة العلماء Journal des savants أولهما في سنة ١٨١٧ والآخر بعده بأحدى عشرة سنة . وجملة رأيه أن الكتاب تأليف جماعة لا تأليف واحد ، وانه مؤلف في العهد الاخير ، وانه عربي الوضع من فاتحته الى خاتمه ، ودفع قول المسعودي ان فيه عناصر اجنبية من الهندية أو الفارسية . فناقش أدلته قوم آخرون أشهرهم الاستاذ (يوسف فون هامر) الالماني فقد نشر في سنة ١٨١٩ مقالا في احدى المجلات الالمانية ، وفي سنة ١٨٢٣ مقالا آخر في المجلة الاسيوية أيد فيهما رأي المسعودي تأييداً لا سبيل عليه لاخذ . وفي سنة ١٨٣٩ ترجم الاستاذ (ولبرلين) الانجليزي قصفاً من الف ليلة وليلة وقدم له مقدمة حاول ان يثبت فيها ان الكتاب تأليف رجل واحد وانه ألف فيما بين سنتي ١٤٧٥ و١٥٢٥ للميلاد . ثم استأنف هذا البحث في هذا العصر طائفة من ثقات العلماء أشهرهم : كوجي ومولر ونولدكي واوستروب وكريمسكي وشوفان وكارادثو ، فاستجلبوا على قدر إمكانهم ما غمض من أصل هذا الكتاب حتى أصبح

من الممكن بعد تمحيص ما قالوه وتصحيح ما جهلوه أن نثبت في هذا الأصل رأياً يقارب الصواب ان لم يكنه .

[أصل الكتاب وطبقته] — أصل هذا الكتاب نواة من الأفاصيص الهندية والفارسية تسمى هزازافسانه ترحم الى العربية من الفهلوية في أواخر القرن الثالث للهجرة بعنوان « الف ليلة » وهو الذي رآه المسعودي وانتقده ابن النديم . ثم تجمع حول هذه النواة في الازمنة الواقعة بين القرن الرابع والقرن العاشر من الهجرة طبقتان طبقة بغدادية صغيرة وطبقة مصرية كبيرة . فأما النواة أو الأصل أو الاطار كما يسميه الباحثون فمؤلف من الحكايات الباقية الآتية : حكاية الملك شهريار وأخيه شاه زمان وهي مقدمة الكتاب وحكاية التاجر والجنبي ، وحكاية الصياد والجنبي ، وحكاية حسن البصري ، وحكاية الحصان الآبنوس ، وحكاية الامير باسم وجوهر السمنديلية ، وحكاية أردشير وحياة النفوس ، وحكاية قمر الزمان بن الملك شهرمان والأميزة بدور ، وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال .

وقد اختلفت كلمة الباحثين في أصل هذا الأصل كما ألعنا الى ذلك من قبل ، ففريق يرى ورأيه الأرجح ان المقدمة وبعض حكايات الاصل هندية وبينى هذا الرأي على المشابهة في الموضوع والطريقة والأسلوب ، فأما المشابهة والموضوع فان في حكاية الملك شهريار واخيه مشابهة من « كاثاسارت ساجارا » الهندية . وأما المشابهة في الطريقة فان إدماج حكاية في حكاية وتوليد قصة من أخرى احدى خصائص الأدب القصصي الهندي وهي ملحوظة في قصة (مهاباراته) و (بنجه تنتري) اصل كليلة ودمنة ، لان الباعث الاول على القصص في أدب الهند كان ابناء الفرصة واكتساب الوقت حتى يؤفك المتهور عن عزيمه ، ويحجز المتسرع عن وجهه ، كفعل البيغاء مثلاً مع زوجة صاحبه في حكاية (سو كاسباتاتي) فقد كان يقص عليها كل يوم أحسن القصص ليعوقها بلهو الحديث عن زيارة خليلها في غيبة خليلها ويقطع حديثها دائماً بقوله : سأقص عليك البقية غداً اذا بقيت في البيت . وهذه الطريقة وذلك الباعث نجدهما في كثير من حكايات الف ليلة وليلة فلانواع إذن في انها هندية . وأما المشابهة في الأسلوب فان من لوازم القاص الهندي ان يقول : لا تفعل ذلك وإلا أصيبك ما أصاب فلاناً فيسأله السامع وكيف ذلك فيجيب القاص على هذا السؤال برواية

القصة . وهذا الأسلوب نفسه مستعمل في تلك الحكايات من الف ليلة ٦ وقولم فيها وكيف ذلك ؟ ترجمة حرفية لهذه الجملة السنسكريتية (كأنام إيمات) ثم يمضي هذا الفريق في تطبيق نظريته على بعض الحكايات وينتهي الى ان هناك طائفة من الأفاصيص لاشك في انها فارسية وهي حكاية الحصان الابنوس وحكاية حسن البصري وحكاية سيف الملوك وبديمة الجمال وحكاية قمر الزمان والاميرة بدور وحكاية بدر باسم والاميرة جوهر السنديلية وحكاية أردشير وحياة النفوس .

وفريق آخر يرى ان الأصل كله فارسي تأثر بالعقائد اليهودية والايغريقية والاسلامية ويريد أحدهم وهو الاستاذ كوجي ان يجعل بين هيكل الف ليلة وليلة وبين قصة استر اليهودية صلة ونسبة . ذلك لان ابن النديم في الفهرست يقول ان هنار افسانه ألف لحميا بنت بهمن ٦ والطبري يقول ان استر هي زوج بهمن ٦ والمسعودي يجعل استر زوجة ليجتنصر ويسميا دنيا زاد ٦ ثم يطلق اسم شهرزاد ايضاً على أم حميا بنت بهمن اي على زوجة بهمن وهي التي سماها الطبري استر . ويقول المسعودي ايضاً في موضع آخر ان أم حميا يهودية ٦ ويعود الفردوسي والطبري والمسعودي فيطلقون اسم شهرزاد على حميا نفسها وهي بنت الملك بهمن وزوجه على عادة الفرس الاولين . أما وجه الشبه بين قصة استر المذكورة في التوراة وبين مقدمة الف ليلة فهو أن الملك أسريوس كان كالمملك شهر يار لا يرى المرأة الا ليلة واحدة ٦ فتزف اليه البكر مساءً ليطردها من قصره صباحاً دون ان يقتلها كما يفعل شهر يار واستر كانت كـشهرزاد تستهوي الملك وتخلب لبه فيستقيمها ٦ وهي بنت الوزير وشهرزاد بنت الوزير ٦ وهي تفرر بنفسها لتنقذ بنات جنسها من شر الفضيحة والنل ٦ وشهرزاد تفعل ذلك الفعل لتدراً عن بنات قوما خطر السب والقتل .

أما علة هذه الآراء المتناكرة التي تجعل هذا الاصل عربياً يجتأ او فارسياً يجتأ او هندياً مشوباً — فهي ان القصص العرب قد عثوا به عثاً شديداً فبدلوا أسماءه وغيروا أسلوبه وموهوا لونه واخترعوا بعضه وطبعوه بطابع اسلامي محض ثم بعثوه في جوانب الكتاب وثنايا القصص حتى التاث على المقاييس الفنية فرزه وتجديده .

واما الطبقة البغدادية فتتألف من أفاصيص غرامية صغيرة انتزعت من حياة العرب واتسمت بنسمة الاسلام وفاضت بنعيم الحب والترف . تمثل حياة الطبقة الوسطى بأسلوب

٥١

صحيح عذب وتصور حضارة بغداد في أيام العروس^(١) بخيال قوي خصب ، وتشهدكم سورة الغني في الأسواق ، وضجة الغلمان في الافنية ، وقصف الجوازي في المقاصير ، ومداعبة الزوارق الالهية في دجلة ، وتجعل من الخليفة الرشيد ملاك رحمة ورسول عناية يجي متذكراً وظاهراً في كل مكان بالثروة للمحروم والعدل للمظلوم والوصل للعاشق البائس . ولا أقصد بذلك الى أن كل حكاية يتدخل فيها الرشيد تكون بغدادية ، فان افتتان الناس بهجده ، وازدهار العراق في عهده ، جعلاه رمزاً للرخاء والعدل حتى في زمن غير زمنه ووطن غير وطنه .

تجمعت هذه الطبقة في مدى القرنين الرابع والخامس مما أثر عن الرواة ودون في الكتب مستقلاً وغير مستقل . فهي على ما أرجح بقايا القصص التي نشرها الادباء البغداديون ثم طواها الزمن ، وقد عد ابن النديم في الفهرست عشرات منها كقصة علي بن اديم ومنهله ، وقصة عمرو بن صالح وقصاف ، وقصة ابي العتاهية وعتب ، وقصة وضاح وأم البنين ، وقصة احمد بن قتيبة وبانوحه ، وقصة ريجانة وقرنفل وقصة سكينه ولرباب الخ وأشهر حكايات هذه الطبقة حكاية علي بن بكار وشمس النهار ، وهي قصة شهيدين من شهداء الحب تشعر النفوس حرقه الأسي على جد هما العاثر ونهايتهما الخزنة ، وقد صيغت في أسلوب رقيق وعبارة مهذبة واشتملت على نوع من الأدب يكاد يخلو منه أدب الخاصة وهو الرسائل الغرامية التي تجري بين العاشقين اذا عنز اللقاء وعيل الصبر . ثم حكاية أنس الوجود وورد الأكام وهي نطعة حب وشعر وغزل . تجدون من فيها : اما محباً أو حبيباً أو واصلاً بينهما ، والشعر الذي تضمنته إنما أنشي لها خاصة فهو مطابق لمقتضى أحوالها ، مشتمل على أسماء أبطالها ، وذلك قليل في سائر الكتاب كقوله من أبيات :

ما خاب من سمالك أنس الوجود يا جامعاً ما بين أنس وجود

ياطلعة البدر الذي وجهه قد نور الدنيا وعم الوجود

ثم حكاية البنات الثلاث مع الجمال والصعاليك الثلاثة . ثم حكاية النائم اليقظان أو أبي الحسن الخليلع . ثم حكاية بدور وجبير بن عمير الشيباني . ثم حكاية الرشيد مع الخليفة الثاني محمد بن علي الجوهري . ثم حكاية المعتضد مع ابي الحسن الخراساني وهي تدر

(١) أيام العروس اسم كان يطلقه البغداديون على عصر الرشيد . (المسعودي)

٦ : م

على السرف والترف والحب وتقص علينا مصرع المتوكل - ثم حكاية الشاب البغدادي مع جاريته . ثم حكاية الجوارى الضرائر . ثم حكايات السندباد البحري وهي وصف جذاب شائق لسبع سفرات مخاطر في مياه الهند والصين قام بهن السندباد في عهد بلغت فيه بغداد والبصرة غاية لم تدرك يومئذ في العمران والعظمة .

وما لاجتدال فيه أنها كانت في الاصل رحلة حقيقية شوهاها الناس بالمبالغة ، وزيفها القصاص بالافتعال والتزويد ، ولعل صاحبها هو الذي تخابها هذا المنحى من الاغراب كما فعل بزرك بن شهريار في كتابه عجائب الهند . فلوصفتها من منصف الأساطير وصرف الحديث كالسكة العملاق التي يظنها الملاحون جزيرة ، وبيضة الرخ التي يحسبها الراؤن قبة اذن لتكشف عن تفاصيل دقيقة تطابق ما كتبه الرحالون في هذا الموضوع كوصف جزر المهرجا أو المهرجان كما يسميه السندباد ، والبحث عن الماس بواسطة النسور في سيلان ، وما ذكر عن الفيل والكر كدن وشجر الكافور وتجارة القرنفل الخ . . .

وأصدق ما في حكايات السندباد تصويرها لنفسية الرحالة الذي يشغف قلبه حب الأستفار ومصارعة الأخطار وجهاً لوجه ، فهو في كل سفرة يخوض غمرات الهول ويكابد غصص الفرق ويأخذ على نفسه الموثق الغليظ الا يزعم رحلة بعده هذه المرة . فاذا ما عاد سالماً غائماً الى دياره ، ونعم حيناً بالعيش الرخي بين ندماه وسماره ، عاده الواله الشديد الى البحر الغادر ، ونازعتة نفسه الطلعة الى الأفق البعيد ، فيجتوي الراحة ، ويعاف النعم ، ويتنازع البضائع ، ويكثري السفينة ، ثم يقلع من البصرة !!

واما الطبقة المصرية فهي أوسع الطبقات وأجمعها وأصلحها للبحث وأصدقها في اللهجة وأقلها في البلاغة . تألفت في مدى خمسة قرون بين القرن الخامس والقرن العاشر من القصص العربية والتقاليد الاسلامية والسير اليهودية والاساطير الفرعونية . وقد قسمتها حين حلفتها الى طبقتين قديمة تنتهي بالقرن الثامن وحديثة تنتهي بالقرن العاشر . فالطبقة القديمة حسنة الأسلوب مطردة السياق شريفة الغرض تدور على المغامرة والحرب ، وتعارض الأخلاق وتضارب العواطف ، وتعتمد على الطلاسم والأرضاد والجن والسحر والقدر كحكاية جودر التساجر وإخوته ، وحكاية الوزيرين نور الدين وشمس الدين ، وحكاية مسرور وزين المواسف ، وحكاية قرالزمان الثانية ، وحكاية الخياط والأحدب ، وحكاية منين

بغداد وهي قطعة فنية قوية رائعة ، ثم حكاية علي شار اوشار مع زمرد . والطبقة الحديثة على الجملة عامية اللغة ركيكة الأسلوب جريئة العبارة تدور تارة على حيل المحتالين ومكايد العيارين ومخاطر اللصوص ، وتارة على تصوير الأخلاق وتذكير النفوس الغافلة بالعز . وظهور القمص المحتال الناعم بجانب القمص المتصوف الزاهد في هذه الطبقة — إنما اقتضته طبيعة المجتمع المصري يومئذ من التجاء فريق من الناس الى الله وانصراف فريق آخر الى الشيطان . وقد كان من الممكن ان تبدو هذه الظاهرة ايضاً في قصص بغداد لولا ان مغامرات المهو والحب فيها قد نابت في نفوس القمصيين على كل شيء وهم الى ذلك كتاب يتأهبون عن حياة العامة . فقد كان في بغداد على عهد الخليفة المعتضد بالله رجل اسمه العقاب وكنيته ابو الباز شهر بالكيد والحيلة حتى قال فيه المسعودي في الجزء الثاني من مروج الذهب ص ٤٧٩ من طبعة مصر « أنه برز في مكائده وما أورده من حيله على دالة الخسالة وغيرها من سائر المكارين والمحتالين ممن سلف وخلف منهم » ثم ذكر بعض حوادثه وهي غريبة .

وكان في بغداد كما كان في القاهرة نظام (التوابين) وهم اللصوص الذين اذا أتعدهم الكبر عن السرقة تابوا ورسمهم الخليفة شيوخاً لأصناف اللصوص فاذا حدثت حادثة عرفوا فعل من هي . ذكر ذلك المسعودي ايضاً في ص ٤٧٣ من الجزء نفسه وكانت بغداد والقاهرة تتبادلان هذا الصنف من الزعماء والشيوخ كما يقصه علينا الف ليلة وليلة .

تأثر القصاصون المصريون في حكايات الحيل اذن بطبيعة العمران فضلاً عن تأثرهم بما بقي مذكوراً على بعض الألسنة من أساطير العهود الفرعونية ، فان قصة علي بابا واللصوص الاربعين مثلاً تشبه قصة وردت في (كتاب الأفاصيص الشعبية في مصر القديمة) لكبير الأثريين الاستاذ (ماسبيرو) . ثم تأثروا في أفافيص العبر والعظات بالاسرائيليات كحكاية مدينة النحاس وقصة حاسب كريم الدين وبلوقيا وجان شاه ، وذلك مادعا الاستاذ (فكتور شوفان) الى ان يقول ان القصص المصرية الاخيرة إنما وضعها يهودي مصري أسلم ، وذلك بالطبع وهم من الاستاذ لان علم العرب بالاسرائيليات منذ ظهر الاسلام لا يقل عن علم اليهود بها .

وأشهر أفافيص هذه الطبقة حكاية علي بابا واللصوص الاربعين ، وحكاية علاء الدين

ابي الشامات والمصباح العجيب ، وهي التي اقتبسوا منها لص بغداد للسينا ، ثم حكاية معروف الاسكاف ، وحكاية ابي فير وابي صير ، وقصة حاسب كرم الدين ومملكة الحيات وقصة مدينة النحاس ، وحكايات احمد الدنف وحسن شومان وعلي الزبيق ودليلة المحتالة وزينب النصابة ، وحكاية الملك الناصر والولاة الثلاثة ، وحكاية الرجل الصعيدي وامراته الافرنكية .

وفوق هذه الطبقات الثلاث أو الاربع تراكم في العصور الحديثة عدد من القصص الكبيرة والأقاصيص المؤثرة ليلغ الكتاب الغاية التي حددها له اسمه . وفي هذه الزيادة تختلف النسخ اختلافاً شديداً . من تلك القصص طائفة حائلة اللون من أثر التقليد كقصة عجيب وغريب وسهم الليل وهي من قصص البطولة والحرب تستعرض وقائعها في العراق بين العرب والعجم أو بين دين الخنيفة والنجوسية ، وتستعير صورها من قصة عنتر وسيرة ابن ذي يزن ، ثم قصة عمر النعمان وأولاده وهي مضروبة على قالب أردشير وحياة النفوس ، ثم قصة تاج الملوك والاميرة دنيا وهي كسابقتها تقليد لقصة أردشير ، ثم حكاية جان شاه وهي تقليد سخيف لحكاية حسن البصري ، ثم حكاية وردخان والملك جليعاد وهي ملفقة من أمثال كليلة ودمنة .

وطائفة أخرى يغلب فيها أثر التجديد كحكاية هكتار الحكيم ، وأقصوصة شول وشمول ، وحكاية الجارية تودد وهي حكاية ثقافية تعليمية كتبها فقيه مصري في العهد الأحدث على الرغم من وقوع الحادثة ببغداد ، وقيام المناظرة برياسة النظام المتكلم في مجلس الرشيد ، فان الجارية كانت توجب السائل في الفقه على المذهب الشافعي وتصرح بذلك ، وتذكر في القويم الزراعي الشهور القبطية ككيهك ويرموده وبشنس ومسرى وأمشير ، ثم تقول في حضرة الرشيد : الويل ثم الويل لمصر والشام من جور السلطان . ومن الغريب ان الاستاذ اوستروب يقول في دائرة المعارف الاسلامية ان هذه القصة نشرت في اسبانيا بعنوان (لادون زلاتيودور) أو تودور . ويظن ان تودد تصحيف تودور . ولم يتبع لي الاطلاع على هذه القصة لارنى كيف تتفق مع قصة كل ما فيها مناظرة في علوم الثقافة الاسلامية البحتة .

وهناك عدداً ما ذكرت مجموعة من أقاصيص الفرسان والاجواد ونوادير الاولياء والزهاد

تقلت من العقد الفريد والمستطرف وعمرو من المجالس ومناقب الصالحين لم يقصد بها الا توسيع الكتاب .

[مؤلف الكتاب وزمن تأليفه وسبب تسميته] — ذهبت جهود الباحثين باطلاً في تحقيق هوية المؤلف ، لان هنار افسانه نقل الى العربية غفلاً لم يسم واضعه ، ثم غشيته الطبقتان البغدادية والمصرية على التدرج ، فكان كل قصاص يكتب لنفسه ما سمع وجمع في عصره من ثمرات القرائح وقطرات الأقلام دون ان يسندها الى راوٍ او يعزوها الى مؤلف . ولماذا يفعل ذلك وهو يريد ان يحفظ وبقص لا أن يروي وينشر ! فلما هيأت الاحوال أسباب تدوينها في العهد الذي ذكرته قبض الله لها من ضم شتات الفتها ونسق نظام وحدتها ثم دونها على هذه الصورة . ولم يستطع ذلك الجندي المجهول ان يجلي اسمه على الخلود ، إما لتواضع فيه حملة على إنكار ذاته ، وإما لتواطؤ من النكران والنسيان أمات اسمه بعد ممانته ، ومن التوافق الغريب ان أسماء الكتاب الذين وضعوا القصص الفرنسية الكبيرة في العهد الذي دون فيه الف ليلة وليلة قد سحب النسيان عليها ذيله كذلك ، كأخا في رولان وقصص المائدة المستديرة وقصص الحكماء السبعة مثلاً .

وقد اختلف العلماء في أن يكون المؤلف واحداً أو جماعة ولست أرى لهذا الخلاف وجهاً فان الكتاب تكون على اليقين من أعمال مستقلة ثم نما بالاتفاق على توالي الحقب ، فوضعه وتكوينه إذن عمل جمع ، وجمعه وتدوينه عمل فرد ، وتحليله الى الاعمال الفردية المتعاقبة أمر فوق القدرة ومن وراء الإمكان . أما التاريخ الذي قرأ فيه على هذا الوضع الأخير فهو النصف الاول من القرن العاشر من تاريخنا ، ومن الممكن ان يحدده من سنة في السنوات العشر الواقعة بين سنتي ٩٢٣ و٩٣٣ وهما توافقان سنتي ٥١٧ و٥٢٦ من التاريخ المسيحي . وقد حصره الاستاذ وليلمين الانجليزي بين سنتي ٤٧٥ و٥٣٥ للميلاد اي في مدى خمسين سنة فوافقتنا في الغاية وخالفنا في البدء ، ولم نر هذا الرأي اعتباطاً من جهة ، ولا استنباطاً من النص الظنين من جهة أخرى ، وانما اعتمدنا في تحقيقه على دليل مادي وهو ان الاستاذ الفرنسي (جلان) قد أخذ ينشر ترجمة الكتاب لبلاط الملك لويس الرابع عشر سنة ١٧٠٤ وقد نقله عن نسخة عربية مخطوطة في ثلاثة مجلدات أرسلت اليه من سورية بعد سنة ١٧٠٠ وهي مكتوبة بمصر غفلاً من التاريخ ، ولكن الذي نقلها الى الشام وهو من

طرابلس كتب عليها بخطه انه امتلكها سنة ٩٤٣ للهجرة ثم انتقلت من يده الى يد آخر من حلب فكتب عليها أيضاً تاريخ هذا الانتقال وهو سنة ١٠٠١ فيكون تأليف الكتاب إذن قد تم قبل سنة ٩٤٣ بزم من تقدره كما قدره (لين) بعشر سنين .

هذا من جهة الطرف الاعلى اما من جهة الطرف الادنى فاننا نجد ذكر القهوة المعروفة بتردد في بعض الحكايات كحكاية ابي صير وابي قير وحكاية علي نور الدين ومريم الزنارية مثلاً وذلك لا يكون قبل العقد الاول من القرن العاشر لان القهوة لم تنتشر في الشرق الا في هذه المدة ، ثم نجد لفظ الباب العالي وبعض النظم العثمانية تذكر من حكايات أخرى كحكاية معروف الاسكاف وهي مصرية قطعاً والعثمانيون لم يستولوا على مصر قبل سنة ٩٢٣ فيكون الكتاب إذن قد دوت بعد هذه السنة وقبل سنة ٩٣٣ .

ذلك تحقيق الزمن الذي صنف فيه الكتاب جملة ، اما تحديد التاريخ لكل حكاية وكل طبقة فذلك عمل ان تيسر في حكاية تعذر في أخرى ، وبعض الباحثين قد حاول ذلك في شي من التوفيق كالاستاذ وليم بوير الامريكى فانه نشر سنة ١٩٢٤ بحثاً في ٤٤ صفحة من المجلة الاسيوية جزم فيه بان حكاية الوزيرين شمس الدين ونور الدين قد كتبت بعد حكم الظاهر بيبرس أي بعد سنة ٦٢٦ ويرجع انهما كتبت سنة ٧٠٦ وان قصة الخياط والاحدب بما تشتمل عليه من الحكايات الاخرى كمرين بغداد قد ألفت سنة ٨١٩ للهجرة والنخول في هذا الموضوع يخرج بنا الى التفصيل الذي يمك في الروح ويحمد نشاط الحديث .

سمى العرب هنار افسانه الف ليلة ولو أرادوا الترجمة الامينة لقالوا الف خرافة أو أسطورة ، فعدوهم عن العنوان الصحيح بدلنا على أحد أمرين : إما ان الليلة كانت في اصطلاحهم ترادف الاسطورة باعتبارها زمناً لها وذلك ما نستطيع استنباطه من قول محمد ابن اسحق الوراق : « ابتدا ابو عبدالله الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه الف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم كل جزء قائم بذاته لا يتعلق بغيره وأحضر المسامير فأخذ منهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ما يحلى بنفسه . . . فاجتمع له من ذلك اربعمائة ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تجميعه الف سمر ٠٠٠ » وإما ان يكون عدد الالف في الاصل انما أريد به الكثير

لا التحديد على حد قوله تعالى : « ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » وأحربه ان يكون كذلك فان ابن النديم قد رآه بتمامه مراراً وقال ان فيه دون المائتي مسر وهو اليوم بطبقاته وزياداته واستطراداته لا يتجاوز ٢٦٤ حكاية قسمها المؤلف على الف ليلة وليلة تقسيماً فيه عبث الهزل أو سخف الصناعة فان شهرزاد يدر كها الصباح دائماً ولما يمض على حديثها غير بضع دقائق على انه لم يبق مما رآه ابن النديم الا تلك الحكايات التي سردناها عندما تحدثنا عن الأصل .

إما زيادة الليلة على الالف فمن عمل القرن السادس لان النسخة التي رآها القرطبي بمصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي كانت تحمل اسم الف ليلة وليلة . ويقول (جاد مستر) في تعليل زيادة الليلة ان العرب يطأرون بالأعداد الزوجية وهو زعم غريب مارأيت في تاريخنا ولا في أدبنا ما يؤيده . ولقد ظل الكتاب اكثر من قرنين يسمى الف ليلة وكان الجهمشيارى يريد أن يسمي كتابه الف مسر وعندنا الفية ابن معطي والفية ابن مالك ، وأغرب من هذا الزعم ان يؤيده أوستروب في دائرة المعارف ويزيد عليه ان ميل الناس في تلك العصور الى التجميع في عناوين الكتب كان من البواعث ايضاً على هذه التسمية ! وليس في قولنا الف ليلة وليلة كما تعلمون تجميع ولا موازنة . والغالب في رأبي أن الليلة انما زيدت فوق الالف لافادة الكمال كظفحة الإيلاء ورجحة الميزان ، لان الالف عدد تام بالنسبة الى هذا الكتاب فاذا زيد عليه الواحد كان كاملاً . والكمال درجة فوق التام ، وان في لغة التخاطب ما يشبه ذلك فقد يقال في المن قضيت لك الف حاجة وحاجة وفي المبالفة زرتك الف مرة ومرة وهلم جرا .

« للبحث صلة »

احمد حسن الزيات

عضوالمجمع العلمي العربي